تأمُّلات في إنزال القرآن

الدكتور عدنان بن محمّد أبو عمر

الكلية الجامعية للأم والعلوم الأسرية

الإمارات العربية المتّحدة

الملخص

إنّ هذا البحث يعالج مفردةً من المفردات المرتبطة بكتاب الله عزَّ وجلَّ، وهـي مسـألـة ((إنزال القرآن الكريم))، وقد جاءت هذه الدراسة متناسبةً مع الفسحة المتاحة لها في هذا المقام، معتمدةً منهج الاستقراء والتحليل والمقارنة والاستنتاج، حيث جمعَتْ أقوال العلماء فيما تناولته من مباحث ومسائل، وعرضَتْ أدلتَهم، وقارنت بينها، واستنتجت من مجموع ذلك أمــوراً وخلاصات بدَتْ، وأظهرت حكماً ومعاني وأسراراً انكشفت بمقتضى ما أسعف به البحث بعد توفيق الله تعالى وفضله، وذلك كما في معنى الإنزال، وكيفيته والحكمة منها، وكونه بالعربية، والجدل الدائر حول المعرّب ...... وغير ذلك مما هو مطويٌّ في ثنايا هذا البحث ومبثوث فيه.

الكلمات المفتاحية : القرآن ، إنزال ، العلماء ، اللغة ، الأدلة

Abstract :

This research deals with one of the vocabulary associated with the Book of God Almighty, which is the issue of ((The Revelation of the Holy Qur'an)). This study came in proportion to the space available to it in this regard, relying on the method of induction, analysis, comparison and conclusion. Investigations and issues, presented their evidence, compared them, and deduced from the sum total of things and conclusions that appeared, and revealed judgments, meanings, and secrets that were revealed according to what I sought after research after the success of God Almighty and His bounty, as in the meaning of the revelation, how it is and how it is, and its being in Arabic, and the controversy surrounding the Arab. ...... and other things that are folded throughout this research and documented in it.

Key words: Quran, Revelation, Scholars, Language, Evidence

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين على جميع نعمه وآلائه حمداً يرضيه، والصلاة والسلام على سيدنا محمّد مَنْ تزاحمتْ كل الفضائل واحتشدَت كلُّ المكارم فيه، وعلى آله وصحبه وتابعيه. وبعد:

فيبقى ميدان القرآن أوفرَ الميادين حظّاً، وأكثرها جلالاً وقدْراً، ولا يزال البحث فيه واستطلاع حكمه وأسراره أكثرَ للنفس إمتاعاً، وللعقل إغناءً، وللقلب اطمئناناً، وللروح سكينةً وهدوءاً، وللمصلحة رعايةً وصوناً، وللسعادة نوالاً وتحقيقاً، وإلى الهداية وصولاً وبلوغاً.

وكيف لا يكون كذلك بل وأكثر ؟ وهو كلام الله تعالى، فيه بيان مراده منَّا، حمَّله أشرفَ خلقه سيدنا محمداً صلى لله عليه وسلم، وابتعثه نبيّاً ورسولاً فينا، وكلّفه بتبليغه إيّانا، فبلَّغنا إياه مؤدِّياً بذلك الأمانة ومبلِّغاً الرسالة، فمن عمل به واهتدى بهديه فقد أفلح ونجا، ومن ضلَّ عنه فقد خاب وخسر وغوى.

هذا ولكون القرآن كلامَ الله تعالى شرفَتْ مسائلُه، وجلَّ قدْرُه، وتعاظمَ شأنُه، واكتسب خائضُ غمارِ الخدمة له، وعاملُ قريحتِه فيه، ومُستكشِفُ حقائقه، والباحثُ عن أسراره وحِكَمه وأنواره؛ اكتسب من شرفه شرفاً، ومن جلاله وقدره جلالاً وقدراً.

ولا شكَّ أنّ القليل من ذلك مع صدق النية وصفاء القصد كافٍ للقبول عند الله سبحانه، وضامنٌ لنوال شرف الخدمة لكتابه العزيز. واللهَ تعالى أرجو أنْ يُتوِّجَ هذا العمل على قلّته وصغر حجمه بالصدق والإخلاص وسلامة القصد؛ فيكون لي به في ميدان الخدمة لدين الله عزّ وجلّ حصّةٌ أنال بفضل الله تعالى أجرها، وأحظى بخيرها ونعيمها وثوابها.

وليس هذا البحث الذي بين أيدينا إلا وارداً ضمن ذلك السياق العام من الخدمة لكتاب الله عزّ وجلّ في جزئية من جزئيات بحار مسائله وأحكامه، وفي مفردة من مفردات محيطات حِكمه وأسراره وأنواره، حيث تُمثِّل تلك الجزئية دراسةً مختصرة لقيد من القيود الواردة في تعريف القرآن الكريم، ذلكم هو قيد ((**المنزَّل**)).

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أمورٍ منها:

1) أنّه بحث جارٍ مجرى الخدمة لكتاب الله عزّ وجلّ من حيثُ تعلُّقُه بالمباحث و المسائل المرتبطة بالقرآن، والدائرة في فلك أسراره وحِكَمه.

2) أنّه بحثٌ يكشف عن قيد من قيود تعريف القرآن، ويُبيِّن ما له من المساحة من حيثُ هو عنصرٌ من عناصر التعريف فضلاً عن مباحث أخرى بدَتْ على صلةٍ وثيقة بهذه الدراسة.

إشكالية البحث:

تتمثَّل إشكالية البحث في التساؤلات الدائرة حول النقاط الآتية :

1 – تصوُّر معنى الإنزال في الكلام، ذلك أنّ المتبادر إلى الذهن في معنى الإنزال أن يكون من علوٍّ إلى أسفل، وإنما يُتصوَّر ذلك في الماديات، فكيف لنا تصوُّره في الكلام ؟! ...

2 – سرُّ اختيار اللغة العربية وعاءً لمعاني كتاب الله عزَّ وجلّ، ولِمَ لم يكن ذلك الوعاء غيرَ تلك اللغة ؟

3 – لوازم تابعة لهاتين النقطتين العريضتين تتوافد لدى دراستهما والبحث فيهما، هذه اللوازم تُمثِّل أسئلةً وإشكالات متتابعة ومتلاحقةً وفق مجريات البحث، ولسوف يلحظ القارئ الكريم ذلك في ثنايا البحث.

أسباب اختيار البحث:

إنّ المتتبِّع لهذا البحث يجد فيه إجاباتٍ عن تساؤلات، وحلّاً لإشكالات، وهو فيما يجيب عنه من تلك التساؤلات، وما يقدِّمه من فكٍّ وحلٍّ لتلك الإشكالات يُمثِّل لكاتبه حصيلةً سعى إلى نوالها، ويُمثِّل السعي لديه إلى بلوغ غايته من ذلك سبباً دفع به إلى تناوُل هذا الموضوع بالبحث والدراسة.

ولا يخفى أنّ عرضَ الأقوال وتقليب الأدلة يستثير في كلِّ جولة جملةً من التســاؤلات، وربما الإشكالات، يتوافد بعضها وراء بعضٍ، ولقد كان هذا البحث يجيب عنها في كلّ مرة بقدر ما يُسعف به توفيقُ الله تعالى، وإنّ رغبة الكاتب في الإجابـة عنها حدَتْ به إلى الخوض فــي غمارها.

كلُّ ذلك مجموعاً بعضه إلى بعضٍ مثّل السبب الذي ساق الكاتب إلى دراسة هذا الموضوع والبحث فيه، ولا يفوتنا هنا أن نأخذ بعين الاعتبار ما تقدّم في فقرة أهمية البحث كمفردة من مفردات سبب اختيار هذا الموضوع ودراسته.

الدراسات السابقة:

لا شكَّ أنّ المباحث المرتبطة بإنزال القرآن الكريم متنوِعة ومتعدِّدة، وقد أفردهـا العلماء بالبحث والدراسة في أبواب مستقلة، ولا يكاد يخلو منها مؤلَّفٌ ما في علوم القرآن قديماً وحديثاً، ولقد ساق الإمام الزركشيُّ في البرهان ومن بعده الإمام السيوطي في الإتقان .... وغيرهم كثير؛ ساقوا كثيراً من المسائل المتعلِّقة بإنزال القرآن.

وكذلك علماء أصول الفقه، فإنّك لا تكاد تطالع مؤلَّفَ واحدٍ منهم إلا وتجده يتطرّق إلى قيد المنزَّل لدى تعريف القرآن، ويطوي تحته من الحقائق العلمية ما يراه وافياً بغرضه ومُحصِّلاً لفائدته.

هذا وما يُقال في مؤلَّفات الأقدمين يجري في مؤلفات المتأخرين ويصدق عليها، وكذلك الأمر في مؤلَّفات المعاصرين، ولا يكاد يستثنى من ذلك إلا أن يكون المؤلَّف متناولاً لجزئية من جزئيات علوم القرآن على نحو ما هو عليه الحال في الرسائل والأطروحات العلمية.

نعم قد تلمس تفاوتاً في عرض العلماء لمباحث الإنزال، فتجدهم موزَّعين بين مُسهِب قد أطال النَّفس في تصنيفه وتأليفه، وبين آخر مُقِلٍّ لزم سبيل الإيجاز والاختصار.

وإنّما يغني هذا العمومُ المستغرِق فيما أوردناه، والذي يشكِّل شأناً عاماً في علوم القرآن وأصول الفقه؛ إنّما يغني عن تتبُّع جزئيات المؤلَّفات، والتمثيل بها على ما نقول.

منهج البحث :

اتبعت في بحثي هذا منهجاً اعتمدت فيه على الاستقراء والتحليل والمقارنة والاستنتاج، فقد خصصْت بعض مفردات إنزال القرآن الكريم ومسائله بالبحث والدراسـة، كمعنى الإنـزال، وكيفيته والحكمة منها، وسرِّ اختيار اللغة العربية قالباً لمعاني كتاب الله تعالى .... وغيـر ذلك، حيث جمعت أقوال العلماء، وعرضْت

أدلتهم، وقابلتها بعضها ببعض، مع ما تقتضيه طبيعة ذلك من تحليل الأدلة ومناقشتها ونقدها، ثم استنتاج ما بدا لي من أوجه الترجيح فيما بينها.

خطة البحث :

أخضعت بحثي هذا لخطة موضوعية منهجية منضبطة حيث ينقسم البحث إلى مقدمة وخمسة مباحث وفق الآتي :

المقدمة :

تمهيد : ويتضمّن العناصر الواردة في تعريف القرآن الكريم

المبحث الأول : **معنى إنزال القرآن الكريم**

المبحث الثاني : **كيفية إنزال القرآن الكريم والحكمة منها**

ويتضمن مطلبين: المطلب الأول : **كيفية إنزال القرآن الكريم**

المطلب الثاني : **الحكمة من إنزال القرآن الكريم جملةً ومُنجَّماً**

المبحث الثالث : **هل الإنزال للنظم والمعنى ؟**

المبحث الرابع : **اللغة التي نزل بها القرآن الكريم**

ويتضمن تمهيداً وخمسة مطالب :

المطلب الأول : **البيان من أجلِّ نعم الله تعالى**

المطلب الثاني : **قيمة الكلام في كونه مفهوماً**

المطلب الثالث : **اعتماد منهج العرب في كلامهم طريقاً إلى فهم معاني كتاب الله تعالى**

المطلب الرابع : **إشكال وجواب**

المطلب الخامس: **على أيِّ لسانٍ من ألسن العرب نزل القرآن الكريم ؟**

المبحث الخامس : **هل في القرآن شيء من غير لغة العرب ؟**

ويتضمن تمهيداً وخمسة مطالب :

المطلب الأول : **مذاهب العلماء في وقوع ما ليس عربيّاً في القرآن**

المطلب الثاني : **عرض الأدلة**

المطلب الثالث : **المناقشة والنقود والردود**

المطلب الرابع : **مذهب ثالث**

المطلب الخامس : **خلاصات في مسألة المعرَّب**

التوصيات والمقترحات

المصادر والمراجع

تمهيد :

لا يزال البحث يسير بنا في دراسة العناصر المُكوِّنة لتعريف القرآن الكريم وبيان المعنى المراد به، وقد سبق لنا أن وقفْنا في بحث سابق على حصر تلك العناصر، ثم تناولنا منها وقتذاك المفردة الأولى في التعريف، وهي مسألة كلام الله تعالى.

ومتابعةً لما بدأْنا به في البحث السابق، وحرصاً على اتصال ما انتهيْنا إليه هناك بما سنبدأ به هنا؛ نعيد سرد العناصر الواردة في تعريف القرآن الكريم؛ لنبدأ هنا بدراسة العنصر الثاني وهو قيد الإنزال، فيحافظ البحث بذلك على تسلسله وترابطه.

العناصر المكوِّنة لتعريف القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو :

1 – كلام الله تعالى.

2 – المنزل على رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلم.

3 – المُعجِز.

4 – المكتوب بين دفتي المصحف.

5 – المنقول بالتواتر.

6 – المتعبّد بتلاوته.

ولنبدأ الآن بدراسة العنصر الثاني الوارد في تعريف القرآن الكريم، وهو قيد ((المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم))، وقبل البدء بدراسته نقول :

قيد ((المُنزَّل)) من القيود الواردة في تعريف القرآن الكريم، وإنّ المباحث المرتبطة بنزول القرآن الكريم كثيرة، ولا يمكن استقصاؤها في بحث موجز كهذا البحث،

وإنما الذي يعنينا من تلك المباحث ما له – فيما يبدو – ارتباط وثيق بتعريف القرآن الكريم، واستجلاء المعنى المراد بقيد الإنزال كعنصر من العناصر الواردة في تعريف القرآن الكريم، وإليك فيما يأتي أهم تلك المباحث :

المبحث الأول: معنى إنزال القرآن الكريم

المعنى المقصود بإنزال القرآن الكريم، أي : نزَّله جبريل عليه السلام على قلب سيِّدِنا محمّد صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى : (قل من كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله) / البقرة : 97 /.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أنّ كلام الله تعالى مُنزَّل، لكن معنى الإنزال مختلف فيه وفق الآتي :

* قيل : إنزال القرآن معناه إظهار القرآن.

* وقيل: إنّ الله تعالى أفهم كلامَهُ جبريلَ وهو في السماء، وألهمه إيّاه وعلّمه قراءتَه، ثمّ إنّ جبريل عليه السلام أدّاهُ في الأرض. (1)

* وقيل : نزول القرآن يعني أنْ يَتلقَّفه المَلَكُ من الله تعالى تَلَقُّفاً روحانيّاً، أو يحفظَه من اللوح المحفوظ، ثم يَنزلَ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُلقيَه عليه.

* وقيل : استعمال الإنزال في الكلام إنما هو على جهة المجاز؛ لأن الإنزال – ويعني : تحريك الشيء من عُلُوٍّ إلى أسفل – لا يتحقّق في الكلام، فدلّ ذلك على أنّه مستعملٌ فيه مجازاً، سواءٌ أردنا بالكلام المعنى أو اللفظ أو هما معاً، (2) وسيأتي مزيد تفصيل في ذلك لدى الحديث عن مسألة : هل الإنزال للنظم والمعنى ؟

هذا وقد احتُرز بقيد ((المُنزَّل)) الوارد في تعريف القرآن الكريم عن أمور هي:

---

1)) هذان القولان أوردهما الزركشي في البرهان، وكذلك السيوطي في الإتقان، ولم ينسباهما إلى قائل معين. ينظر : البرهان للزركشي (1 / 229)، والإتقان للسيوطي (1 / 138)

2)) هذا القول والذي قبله أوردهما السيوطي في الإتقان، أما الأول منهما فقد نسبه إلى الطِّيبي، وأما الثاني فنسبه إلى القطب الرازي في حواشي الكشاف. ينظر : الإتقان للسيوطي (1 / 138)

- غير الكتب السماوية.
- غير المتلوِّ من الوحي، فإنّه لم يَنزل إلا معناه.
- كلام البشر.

وخرج بقولنا : ((على محمّد صلى الله عليه وسلم)) ما أُنزِل على غيره من الأنبياء والمرسلين كالتوراة المنزّل على موسى، والإنجيل المنزَّل على عيسى، وصحف إبراهيم ..... وغير ذلك مما نزل على بقية الأنبياء والمرسلين.

فهذه أمور تخرج من دائرة التعريف بقيد المنزّل، ولا تدخل فيه.

وهل يخرج الكلام القائم بالنفس؟

اختُلِفَ فيه بين مَن يُخرجُه باعتبار الكلام اسماً للنظم فقط دون المعنى، وبين آخر لا يُخرجُه باعتبار الكلام مشتركاً بين النظم والمعنى.

وهو خلافٌ مبنيٌّ على الخلاف في مسألة الكلام : هل يشمل اللفظ والمعنى معاً، أو هو لأحدهما دون الآخر؟ وقد تقدّم بحث ذلك في مسألة الكلام فليراجع في محله. [1]

هذا وأيّاً كان معنى الإنزال فالذي يبدو لي أنه كوصف وارد في تعريف القرآن الكريم لا يّعدُّ وصفاً ذاتياً؛ لأنه لا تتكشف به الحقيقة ولا تتحدَّدُ به الماهية، فإدراك حقيقة القرآن وتحديد ماهيّته غير متوقِّف عليه، والقرآن الكريم كلام الله تعالى، وكونه مُنَزَّلاً لا إسهام له في بيان حقيقته، ولا تأثير له في تحديد ماهيته، فالقرآن كلام الله تعالى سواءٌ أكان منزَّلاً أم لم يكن كذلك.

المبحث الثاني: كيفية إنزال القرآن الكريم والحكمة منها

المطلب الأول : كيفية إنزال القرآن الكريم

اختلف العلماء في كيفية إنزال القرآن الكريم على ثلاثة أقوال هي :

1() ينظر في / معنى إنزال القرآن الكريم / : البرهان للزركشي (1 / 229)، والإتقان للسيوطي(1 / 138 – 139)، وشرح الكوكب المنير لابن النجار (2 / 7)، وكشف الأسرار للبخاري (1 / 69)، وبيان المختصر للأصفهاني (1 / 267)، ورفع الحاجب للسبكي (2 / 83)، والتحبير للمرداوي (3 / 1240).

القول الأول : أنّه نزل إلى السماء الدنيا ليلةَ القدر جملةً واحدة، ثم نزل بعد ذلك مُنجَّماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم على امتداد فترة بعثته.

ثم اختُلف في فترة تنجيمه – وهي مدة البعثة النبوية – فقيل : نزل منجّماً على امتداد عشرين سنةً، وقيل : ثلاثٍ وعشرين سنةً، وقيل : خمسٍ وعشرين سنةً.

واختلافهم هذا في فترة تنجيمه مبنيٌّ على اختلافهم في المدة التي أقامها النبيّ صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة بعد البعثة وقبل الهجرة.

وهذا القول هو أشهر الأقوال وأصحُّها، وعليه أكثر أهل العلم، وهو مُؤيَّد بجملة من الأدلة منها : ما رواه الحاكم والنَّسائيّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال : أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أُنزل بعد ذلك بعشرين سنةً، ثم قرأ (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) / الفرقان : 33 /، و (قرآناً فرقْناه لتَقرأَه على الناس على مُكْثٍ ونَزَّلْناه تنزيلاً) / الإسراء : 106 / [1]

وكذلك أخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال : فُصِلَ القرآنُ من الذِّكر فوُضِع في بيت العزّة من السماء الدنيا، فجَعَلَ جبريلُ ينزل به على النبيّ صلى الله عليه وسلم.[2]

القول الثاني : أنّه نزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلةَ قدرٍ من عشرين سنةً، وقيل : في ثلاث وعشرين ليلة قدرٍ من ثلاث وعشرين سنةً، وقيل : في خمسٍ وعشرين ليلة قدرٍ من خمسٍ وعشرين سنةً؛ في كلِّ ليلة ما يُقدِّر الله تعالى إنزالَه في كلِّ السنة، ثم يَنزل بعد ذلك مُنجَّماً على رسول لله صلى الله عليه وسلم على امتداد السنة.

وهذا القول منقول عن مقاتل، وقال به أيضاً أبو عبد الله الحَليمي الجرجاني، والماوردي في تفسيره.

1)) أخرجه النسائي في سننه، كتاب التفسير ، سورة الفرقان باب قوله تعالى : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ..) ، (10 / 205) رقم / 11308 / ، والحاكم في المستدرك (2 / 222) وصححه ووافقه الذهبي .

2)) أخرجه الحاكم في المستدرك (2 / 223) وصححه ووافقه الذهبي .

القول الثالث : أنه ابتُدِئ إنزالُه في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك مُنجَّماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات. وبهذا القول قال الشعبيّ [1] وغيرُه.

وهناك **قولٌ رابع** ذكره الإمام السيوطيّ في الإتقان، وذكر أنه قول غريب، وهو أنّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ جملةً واحدة، وأنّ الحَفَظَة نَجَّمتْه على جبريل في عشرين ليلةً، وأنّ جبريل نَجَّمه على النبيّ صلى الله عليه وسلم في عشرين سنةً. [2]

المطلب الثاني : الحكمة من إنزال القرآن الكريم جملةً ومُنجَّماً

لسائل أن يسأل : لماذا نزل القرآن الكريم جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك من السماء الدنيا إلى الأرض مُنجَّماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وهل هناك من سرٍّ أو حكمة في إنزاله دفعةً واحدة إلى السماء الدنيا، ثم منجمَّاً على دفعاتٍ إلى الأرض ؟

لا شكَّ في أنّ لله تعالى حِكَماً وأسراراً في ذلك، تَلمَّس العلماء طرفاً من تلك الحِكَم والأسرار، وإليك فيما يأتي بيانها :

أولاً : الحكمة من إنزال القرآن الكريم جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا

ذكر العلماء في بيان الحكمة من نزول القرآن الكريم دفعةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا؛ ذكروا أموراً منها :

1 – تفخيمُ أمر القرآن الكريم، وتفخيمُ أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي نَزَل عليه القرآن، وبيان ذلك أنّ الله تعالى أعلمَ أهل السماوات السبع أنَّ القرآن هو آخر الكتب المُنزَّلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قرَّبَه إليهم ليُنزلَه عليهم، وقد باين الله

---

1)) الشعبي : هو عامر بن شراحيل الهمداني، المكنى بأبي عمرو، والمعروف بالشعبي، التابعي الإمام العلّامة، كان من رجال الحديث الثقات، وإلى جانب ذلك كان فقيهاً شاعراً. توفي الشعبي سنة(103 هـ). ينظر : شذرات الذهب لابن العماد (22 / 24 وما بعدها)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (4 / 294 وما بعدها)، والأعلام للزركلي (3 / 151) .

2)) ينظر في / أقوال العلماء في كيفية إنزال القرآن الكريم / : الإتقان للسيوطي (1 / 129 وما بعدها)، والبحر المحيط للزركشي (1 / 228– 229 و 232) .

تعالى بين القرآن وسائر الكتب المنزلة قبله في ذلك، حيث أُنزلَت تلك الكتب دفعةً واحدةً بينما جمع الله تعالى للقرآن الأمرين معاً، فكان إنزاله جملةً ثم إنزاله مُنجَّماً ومُفرَّقاً، وذلك تشريفاً للمُنزَّل عليه، وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

2 - نزول القرآن الكريم دفعةً واحدةً إلى السماء الدنيا تسليمٌ من الله تعالى لهذه الأمة ما كان أبرز لهم وأظهر من الحظ ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبيانُ ذلك أنّ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم رحمةٌ للناس، وقد تمثّلَت هذه الرحمة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم، حيث أَنزل الله تعالى القرآن إلى بيت العزَّة في السماء الدنيا ليدخل حيِّز الدنيا، ووُضِعَت النبوَّة في قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وجاء جبريل بالرسالة ثم بالوحي، وكأنَّ الله تعالى أراد أن يُسلِّم هذه الرحمةَ إلى هذه الأمة، وهذه الرحمة هي حظُّ هذه الأمة من الله تعالى.

3 - ومما قيل في الحكمة من نزول القرآن الكريم جملةً إلى السماء الدنيا : إنّ فيه تكريمَ بني آدم، وتعظيمَ شأنِهم عند الملائكة، وتعريفَهم عنايةَ الله تعالى بهم ورحمتَه لهم.

ثانياً : الحكمة من إنزال القرآن الكريم مُنجّماً من السماء الدنيا إلى الأرض

كذلك ذكر العلماء حِكَمَاً وأَسراراً تكمن وراء نزول القرآن مُنجَّماً على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بل إنَّ القرآن الكريم لفت النظر إلى جملة من تلك الحِكم والأسرار، وفيما يأتي طرفٌ منها :

1 - تثبيت فؤاد النّبيّ صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه :

وهذه الحكمة قد صرّحت بها الآية الكريمة في قوله تعالى : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدةً كذلك لنُثبِّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً) / الفرقان : 32/

ولقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُواجه من الناس قسوةً وأذًى وغِلظةً، وكان في مقابل ذلك حريصاً كلَّ الحرص على هدايتهم، راغباً رغبةً شديدةً في إيصال أنوار الحق إلى قلوبهم، فكان يَنزلُ عليه الوحي بين الحين والآخر تقويةً لقلبه، وتثبيتاً له،

وعنايةً به صلى الله عليه وسلم، وكلما تَجدّد العهد بالوحي زادت همّتُه، وتمكّن صبرُه وثباتُه، وحصل له من السرور والانشراح ما تعجز العبارة عن وصفه والإحاطة به.

2 – تيسير حفظ القرآن على النّبيّ صلى الله عليه وسلم :

فقد نزل القرآن الكريم على النبيّ صلى الله عليه وسلم مُفرَّقاً ليَسهلَ عليه حفظه، ويَتيسّرَله، فيَثبتَ عنده، ويُمثِّلُ هذا المعنى وجهاً من وجوه تفسير قوله تعالى : (لنُثبِّت به فؤادك)، أي : لنَحفظَه فيثبتَ عنده حفظُه، وبيان ذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كما هو معلوم كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، فنزل القرآن عليه مُفرَّقاً ليسهل عليه حفظُه ويتيسّر له، فيثبت بذلك حفظ القرآن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا والذي يبدو أنّ ما يُقال هنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقال مثله أيضاً في أمَّتِهِ؛ ذلك أنّ العرب كما هو معلوم كانت أمةً أميّة لا تقرأ ولا تكتب، وسِجلُّها فيما يُلقى إليها إنّما هو ذاكرتها، ولا شك أنّ القرآن واجبُ الحفظ والفهم، فكان في نزوله مُنجَّماً ما يُيسِّر لهذه الأمة حفظَ كتابها وفَهْمَ معانيه، ثم تثبيت هذا الحفظ والفهم لديهم، فلا ينال النسيان منه شيئاً.

المبحث الثالث: هل الإنزال للنّظم والمعنى؟

بعد الاتفاق على أنّ كلام الله تعالى منزَّل يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي :

هل المنزّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النظم والمعنى، أو هو المعنى فقط دون اللفظ ؟

هذا المبحث يتضمّن جواباً لذلك السؤال، وإنّ المتتبِّع لهذه المسألة يجد للعلماء فيها أقوالاً عدّة، سنوردها لك وفق الترتيب الآتي:

القول الأول : أنّ المنزّل على النبيّ صلى الله عليه وسلم إنّما هو اللفظ والمعنى، وأنّ جبريل عليه السلام حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه، وذكر البعض أنّ أحرف القرآن في اللوح المحفوظ، وأنّ تحت كلّ حرف منها من المعاني ما لا يُحيط به إلا الله تعالى.

القول الثاني : أنّ المنزّل على النبيّ صلى الله عليه وسلم إنّما هو المعنى، وأنّ جبريل عليه السلام إنّما نزل بالمعاني خاصةً دون الألفاظ، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قد علم تلك المعاني، وعبّر عنها بلغة العرب.

وصاحب هذا القول تمسّك بظاهر قوله تعالى : (نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِك لتكونَ من المُنذِرِين) / الشعراء : 193 – 194 /.

والذي يبدو لي أنّه لا وجه للتمسُّك بظاهر الآية ها هنا؛ لأنّ الآية التي تليها مباشرة، وهي قوله تعالى : (بلسانٍ عربيٍّ مبين) / الشعراء : 195 /؛ هذه الآية نصٌّ في كون المُنزَّل بلسان عربيٍّ مبين، والمتبادر منها اللفظ.

القول الثالث : ذهب أصحاب هذا القول إلى أنّ جبريل عليه السلام أُلقي إليه المعنى، وأنّه – أي : جبريل – عَبّر عن ذلك المعنى بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأنّ أهل السماء يقرؤون القرآن باللغة العربية، ثم إنّ جبريل عليه السلام نَزل به كذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي : أنّ جبريل عليه السلام نزل بتلك الألفاظ التي عَبّر بها بلغة العرب عن تلك المعاني الملقاة إليه، وهي الألفاظ التي يقرأ بها أهل السماء القرآن، وهي اللغة العربية. (1)

القول الرابع : فرّق أصحاب هذا القول بين أن يكون القرآن هو المعنى وبين أي يكون الألفاظ، فقالوا :

– من قال : القرآن هو المعنى القائم بذات الله تعالى، فإنزاله يعني : إيجاد الحروف والألفاظ والكلمات الدالة على ذلك المعنى، وتثبيتها في اللوح المحفوظ.

– ومن قال : القرآن هو الألفاظ والكلمات، فإنزاله يعني : إثبات تلك الألفاظ والكلمات في اللوح المحفوظ. (2)

1))هذه الأقوال الثلاثة أوردها السيوطي في الإتقان ولم ينسبها إلى قائل بعينه، أما الزركشي في البرهان فساقها، وذكر أنها منقولة عن السمرقندي. ينظر : البرهان للزركشي (1 / 229 – 230)، والإتقان للسيوطي (1 / 139)

2)) هذا القول نسبه السيوطي في الإتقان إلى القطب الرازي في حواشي الكشاف. ينظر : الإتقان للسيوطي (1 / 138 – 139)

القول الخامس : وهو قول الإمام الجويني[1] ، وخلاصته أنّ كلام الله تعالى المُنزَّل قسمان :

* قسم يَفهمُ فيه جبريل عليه السلام ما قاله ربُّه مما أُمِر بتبليغه إلى النبيّ أو الرسول، ثم يَنزل جبريل على ذلك النبيّ أو الرسول، فيُبلِّغه مراد الله تعالى، وليس لفظه ذلك اللفظ، ولا عبارته تلك العبارة. و**مثاله** ما لو قال الملك لمن يَثِقُ به : قل لفلان : إنّ الملك يقول لك : اجتهد في خدمتي. فلو قال الرسول مُبلِّغاً رسالة الملك لمَن أُرسِل إليه : يقول لك الملك : لا تتهاون في خدمتي؛ فإنّه لا يُعدُّ مُقصِّراً ولا كاذباً في إبلاغ الرسالة، مع ملاحظة أنّ لفظَه ليس لفظَ الملك، ولا عبارته عبارة الملك.

* والقسم الآخر : أن يأمر الله تعالى جبريل عليه السلام بأنّ يقرأ على النبي هذا الكتاب، فينزل جبريل مُبلِّغاً عن الله تعالى كلامه من غير تغيير، فالكلمة المُبلَّغة هنا هي كلمة من الله تعالى. و**مثاله** ما لو كتب الملك كتاباً، ثم سَلَّمه إلى مَن يثق به، وقال له : اقرأه على فلان؛ فإنّ هذا الرسول الأمين يقرأ كتاب الملك بألفاظه ذاتها من غير أنْ يغيِّر فيه حرفاً واحداً، ولو غيَّرَ لَعُدَّ مُقصِّراً وربَّما كاذباً في الإبلاغ والأداء.

هذا والظاهر في هذا القسم كما ترى أن المُنزَّل هو اللفظ والمعنى معاً.

يقول الإمام السيوطيّ بعد أن ساق قول الإمام الجويني تعقيباً عليه : ((قلت : القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو السُنُّة، كما ورد أنّ جبريل كان ينزل بالسُّنَّة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى؛ لأنّ جبريل أدّاه بالمعنى، ولم تجز القراءة بالمعنى؛ لأن جبريل أدّاه باللفظ، ولم يُبَحْ له إيحاؤه بالمعنى.

والسرّ في ذلك :

---

1)) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، الملقب بإمام الحرمين، والمكنى بأبي المعالي. ولد بجوين من نواحي نيسابور سنة (419 هـ). من مصنَّفاته غياث الأمم والتياث الظلم ، والبرهان ، والتلخيص ، والإرشاد ....وغيرها.

توفي الإمام الجويني سنة (478 هـ). ينظر : طبقات الشافعية للإسنوي (1 / 197 – 198)، وطبقات الشافعية لابن السبكي (5 / 477 وما بعدها)، والأعلام للزركلي (4 / 160).

* أنّ المقصود منه التعبُّد بلفظه والإعجاز به، فلا يقدر احدٌ أن يأتي بلفظ يقوم مقامه.

* وأنّ تحت كل حرف منه معاني لا يُحاط بها كثرةً، فلا يقدر أحدٌ أنْ يأتي بدله بما يشتمل عليه.

* والتخفيف على الأمة حيث جُعل المنزلُ إليهم على قسمين : قسم يروونه بلفظه الموحى به، وقسم يروونه بالمعنى، ولو جعل كلُّه مما يُروى باللفظ لَشَقّ، أو بالمعنى لم يَؤمَن التبديلُ والتحريف، فتأمّل.

وقد رأيت عن السلف ما يعضد كلام الجويني.)) (1)

هذا والذي يبدو لي هاهنا أنّ قول الإمام الجويني هو القول الراجح في المسألة، وأنّ المنزّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّما هو عام يشمل اللفظ والمعنى معاً، وليس المعنى دون اللفظ. يدفعني إلى ذلك ملاحظة ما أورده الإمام السيوطي مما سقناه آنفاً تعقيباً على قول الإمام الجويني، وأنّ القسم الأول هو السنَّة، وأنّ القسم الثاني هو القرآن والمؤدّى بلفظه ومعناه.

وهذا القول في الحقيقة ليس شيئاً آخر غير القول الأول، وإنّما أفردته مستقِّلاً بنفسه لمزيد البيان والتفصيل فيه. (2)

هذا وليس يخفى عليك التلاحم والترابط بين هذه المسألة، وهي : هل إنزال القرآن يشمل النّظم والمعنى، أو هو خاصّ بالمعنى فقط دون اللفظ ؟ لا يخفى الترابط بين هذه المسألة ومسألة الكلام التي تقدّمت هذا البحثَ ضمن سلسلة أبحاث تعريف القرآن الكريم، ولعلّ ما قُدِّم هناك يُشكِّل بُلْغةً وافيةً في التأصيل لتلك المسألة والوقوف على خطوطها العريضة.

المبحث الرابع: اللغة التي نزل بها القرآن

تمهيد :

---

1 ( )الإتقان للسيوطي (1 / 141)

2 ( )ينظر في مسألة / هل الإنزال للنظم والمعنى / : الإتقان للسيوطي (1 / 139 وما بعدها)، والبرهان للزركشي(1 / 229 – 230)

بعد أن عرفنا في المبحث السابق مذاهب العلماء في المنزَّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهل هو النظم والمعنى ، أو المعنى فقط ؟ وبعد أن خلصنا إلى أنّ الراجح في المسألة أن يكون المنزَّل هو النظم والمعنى معاً؛ آن أوانُ البحث في اللغة التي نزل بها القرآن الكريم وفق التسلسل الذي توخيْناه في هذا العرض، وإنّما ينحصر حديثنا هنا في بيان اللغة التي نزل بهــا القرآن الكريم.

هذا ومما لا شك فيه ولا ريب أنّ القرآن الكريم إنّما نزل بلغة العرب، وأنّه عربــيّ، نطق بذلك محكمُ كتابُ ربّنا، فقال جلّ ذكره : (الر تلك آيات الكتاب المبين إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون) / يوسف : 1 – 2)، وقال الله تعالى ذكره في موطن آخر : (وإنّه لتنزيل ربِّ العالمين نزل به الرُّوح الأمين على قلبك لتكون من المُنذرين بلسانٍ عربيٍّ مبين) / الشعراء : 192 – 195).

وهنا لا بدّ من لفت النظر إلى أمور عدّة ضمَّنتُها مطالب هذا البحث، وإليك فيما يأتــي بيانها:

المطلب الأول : البيان من أجلِّ نعم الله تعالى

إنّ البيان واللغة من أَجَلِّ نِعَمِ الله تعالى على عباده، بها يُعبِّرون عما في نفوسهم، ويُدلِّلون ويُفصحون عمّا هو مخبوء في صدورهم، والناس في البيان واللغة ليسوا سواء، بل هم طبقات متفاوتون، ودرجات مختلفون، فترى فيهم الحَصِرَ العَيِيِّ والمُستعجِم الأبكم الذي لا يقدر على التعبير عمّا في نفسه، وبالمقابل فيهم المُسهِبُ المُفصِح المُبين.

وأعلى درجات البيان في الأنام ما كان لقائله أقدرَ على بيان مُراده وأبلغ، وكان لسامعه أفهمَ وأقربَ، فإذا تجاوز البيان وُسْعَ الأنام، واعتلى رتبة فاقت قدرةَ العباد، وتخطَّت حدود الممكن لديهم، فاعلم أنّنا نتحدّث عن معجزة لرسول بلغَت مَبلغاً هو الفَوقُ الأعلى، والذي دونه

كلُّ حكمة ومنطق وبيان وكلام، تلكمُ هي معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلّم الخالدة الباقية الدائمةُ، ألا وهي القرآن الكريم، كلام الله تعالى الذي بيانُه فوق كل بيان، وقدر فضله على بيان جميع العباد بقدر فضل الله تعالى على جميع عباده.

المطلب الثاني : قيمة الكلام في كونه مفهوماً

إذا كان البيان من أعظم نعم الله تعالى على العباد، وأنَّ به يعبّرون عمّا في نفوسهم، ويُفصحون عمّا في ضمائرهم، إذا كان ذلك كذلك فمن الواضح أن تنعدم قيمة الكلام إذا كان غير مفهوم لدى المخاطب، وكان ذلك الكلام موجّهاً إليه، بل يغدو الكلام عندئذٍ عبَثاً لا قيمة له ولا فائدة تُرتجَى منه.

وإذا ثبت ذلك فإنّه من غير الجائز أن يُخاطب الله تعالى عباده بما لا يفهمون، وبالتالي يثبتُ أنّ الله تعالى لا يُرسِل إلى عباده رسولاً ويُحمِّله رسالةً بلسانٍ ولغةٍ لا يفهمونها، بل الواضح في هذا والمعلوم أن يكون الله تعالى قد ابتعث رسوله بلسان قومه، وأن تكون رسالته إليهم بلغتهم التي يفهمونها، فيتأتّى للرسول إبلاغ رسالة الله تعالى للناس، ويتأتّى للناس فهم رسالة الله تعالى إليهم، وإدراك مرَاده منهم؛ لأنّ المخاطب إذا خُوطب برسالة لا يفهمها كانت حالُه قبل الخطاب وبعده سواء؛ لأنّه عندئذٍ لم تُفدْه الرسالة شيئاً، وهذا عبَث يتعالى الله تعالى عنه.

وهذا المعنى نطق به بيان الله تعالى في مُحكم تنزيله فقال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم) / إبراهيم : 40 /، وقال تعالى في موطن آخر من كتابه العزيز : (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيِّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) / النحل : 64 /، وبتفعيل حقيقة ما تقدّم وأخذه بعين الاعتبار، وجرياً مع مبدأ أنّ كلّ رسول إنّما يبعثُ بلسان قومه، وأنّ رسالته إنّما تكون بلغتهم ليتحصّل الإبلاغ والفهمُ معاً؛ بكلّ ذلك ومعه نخلص إلى أنّ النبيّ محمداً صلى الله عليه وسلم إنّما ابتُعِثَ بلسان قومه العربيّ، وأنّ كتاب الله تعالى الذي أُنزِل عليه – وهو القرآن – عربيٌّ أيضاً.

المطلب الثالث: اعتماد منهج العرب في كلامهم طريقاً إلى فهم معاني كتاب الله تعالى

إذا ثبت كون الرسالة التي ابتُعث بها النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم بلغة العرب، وأنّ الكتاب الذي أُنزل عليه – وهو القرآن – عربيّ كذلك، إذا ثبت ذلك تَعيَّن

أن يكون منهجُ العرب في كلامهم ، وما تواضعوا عليه في تخاطبهم؛ طريقاً إلى فهم معاني كتاب الله عزّ وجلّ.

ومن هنا كان علم العربية أحد مفردات استمدادات علم التفسير، بحيث يتوقّف فهم معاني كلام الله تعالى على معرفة قواعد العربية، وإنّما يُقصَد بقواعد العربية هنا مجموع علوم اللغة من النحو والصرف والبيان والمعاني ... وغيرها.

وبيان ذلك والدليلُ عليه سهل المنال، وخلاصته أنّ القرآن عربيٌّ كما أثبتنا، نزل بلغة العرب ولسانهم، فلا بدَّ إذاً أن يكون فيه من كلّ ما درج عليه العرب في كلامهم نظير ومثيل، ولفهمِ كتاب الله تعالى وما فيه من المعاني والحِكم والأسرار لابدّ من الإحاطة بما درج عليــه العرب في كلامهم، أي : لا بدّ من معرفة قواعد كلام العرب، وأسسَ التخاطب فيما بينهم، وهو ما يُطلَق عليه / **علوم العربية** ، أو **علوم اللسان** /؛ لأنّه لا يتأتّى فَهمُ معاني كلام الله تعالى ما لم تتحصّلُ معرفة قواعد العربية.

وإذا كان في كلام العرب الإيجازُ والاختصارُ، والإطالةُ والإكثارُ، وإظهارُ المعانــي بالتصريح والكناية، والخبرُ والإنشاءُ، والتقديمُ والتأخيرُ، والعامُّ والخاصُّ، والإظهارُ والحذف والتكرار .... وغير ذلك مما استقرّ عليه العرب في كلامهم، وعُهِدَ منهم الجريانُ عليه فــي تخاطبهم؛ إذا كان في كلام العرب ذلك فلا بدّ وأن يكون له في كتاب الله تعالى نظير ومثيتل وشبيه؛ لأنّه نزل بلغتهم، وراعى طرائقهم في كلامهم، ولفهم ذلك في كتاب الله تعالى لا بدّ من فهمه قبل ذلك في كلام العرب أولاً، ومعرفة ما تواضعوا عليه فيه.

وبالتالي مَن سلك مَسْلَكَ التفسير لكلام الله سبحانه، وخاض بحار معانيه يستجليها، ويستطلع آفاقها، ويستشرف مضامينها ومحتواها، وهو قليل الزاد من علوم العربية، ومزجى البضاعة منها، مَن سلك مَسْلَكَ التفسير وهذه حاله؛ لابدّ وأن يخرج بكلام الله تعالى عمّا أراده وعناه، ولا شكَّ في أنّه واقعٌ في الغلط وسوء الفهم، ومُتخبِّطٌ في تأويلات زائفة رثَّةٍ، وهو – شاء أم أبى – واقعٌ في وجوه من الفهم تخسف بالمعنى المراد خسفاً، وليس كلُّ ذلك إلا لخوض هذا المعترك من التأويل والتفسير من غير زادٍ كافٍ من علوم العربية وقواعدها.

وبالجملة لا بدّ لمَن انبرى فخاض ميدان التفسير، وجال في ساحة التأويل، لا بدّ أن يكون بعلوم العربية عارفاً، وبقواعد تخاطب العرب عالماً، وعلى عوائدهم في أساليبهم ومحادثاتهم واقفاً ومُطَّلِعاً، بالغاً من ذلك مبلغاً عظيماً، ومُتحصِّلاً له منه ذوق رفيعٌ قائمٌ مقام السليقة عند أقحاح العرب، وإلا فسوء الفهم مُحتَّمٌ، والغلطُ والزّيفُ واقعٌ لا محالة.

المطلب الرابع : إشكالٌ وجوابٌ

أما الإشكال فمُتضمَّنٌ في التساؤل الآتي : إذا كان يستقيم فيمن تقدَّم من الأنبياء والرسل عليهم السلام أن يُبعَث كلُّ واحد منهم بلسان قومه؛ لأنه مبعوث إلى قومه خاصَّةً؛ فكيف يستقيم في بعثة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم أن يُبعثَ بلسان قومه ولغتهم وهو مبعوث ومُرسَل إلى جميع الأمم؟

نعم كان يستقيم ذلك لو كان مرسلاً في قومه – وهم العرب – خاصّةً، لكنّه رسول مبعوث ومُرسَل إلى جميع الناس على اختلاف لغاتهم وألسنتهم.

هذا الإشكال، فما الجواب ؟

الجواب أن نقول : الأمر لا يخلو إما أن يكون النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم مُرسَلاً بجميع لغات الناس وألسنتهم على اختلافها وتعدُّدها، أو يكونَ مُرسَلاً بلغة بعضهم وأحدهم.

أما الأول فأمرٌ خارجٌ عن دائرة المألوف، حيث يرفضه المعروف في التخاطب والبيان، ويأباه المعهود من الكلام، إذ كيف يُتَصوَّر أن ترد الكلمة من القرآن الكريم مكرَّرة بجميع اللغات وعلى كلّ لسان ؟! ...

وأما الثاني – وهو أن يكون مُرسَلاً بلغة بعضهم – فأمرٌ متعيِّنٌ مُتحقِّقٌ ثابت، لا سيما وقد ظهر بطلان الأول، وبظهور بطلانه تعيَّن الثاني؛ إذ المسألة مُتردِّدة بينهما فقط.

بقي أن نقول : إنّ لغة بعضهم التي ابتُعِث بها النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم، ونزل بها القرآن الكريم؛ إنّما هي لغة قومه، وهي لغة العرب ولسانهم، ولكن :

فيم اختصاص اللغة العربية بذلك دون غيرها من بين جميع اللغات ؟ ولم اختيرت العربية خاصّةً لتكون لغة الإنزال؟

الجواب : إنّما كانت اللغة العربية أحقَّ بذلك لوُسعها وفصاحتها، ولأنّها لغة أوّلِ المخاطبين برسالة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم والكتاب المنزَّل عليه. (1)

يقول الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره : ((وقد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربيّ مُظهِراً لوحيه، ومُستودَعاً لمراده، وأن يكون العرب هم المتلقِّين أولاً لشرعه وإبلاغ مراده؛ لحِكمةٍ علمها، منها كونُ لسانهم أفصحَ الألسن وأسهلَها انتشاراً وأكثرها تَحمُّلاً للمعاني مع إيجاز لفظه)) (2)

المطلب الخامس : على أيِّ لسان من ألسن العرب نزل القرآن

لسائل أن يتساءل بعد هذا التجوال في رحاب إنزال القرآن الكريم، فيقول : قد ثبت بما تقدّم أنّ القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ولسانهم، لكن من المعلوم أنّ العرب ليسوا قبيلةً واحدةً، بل هم قبائل متعدِّدة، وبتعدُّد قبائلهم وأحيائهم تعدّدت ألسنتُهم ولغاتهم، فهم ليسوا على لهجة واحدة أو لغة ولسان واحد، وإن كان يجمعهم جميعاً اسم أنّهم / عرب /، وإذا كان ذلك كذلك فعلى أيّة لهجة من لهجات العرب ولغاتهم نزل القرآن الكريم ؟

تساؤل يتبادر إلى الذهن لا سيما إذا عرفْنا أنّ التفاوت بين لهجات القبائل العربية وألسنتهم يطال بنية الكلمة، وربما يُقيم حرفاً مقام حرف، أو ينطق حرفاً على صورة حرف آخر في لهجة أخرى.

---

1 ( )ينظر في / اللغة التي نزل بها القرآن / : جامع البيان للطبري (1 / 28 وما بعدها و33 و42) ، والتحرير والتنوير لابن عاشور (1 / 18 وما بعدها) ، والبرهان للزركشي (1 / 283 وما بعدها) ، والبحر المحيط للزركشي (1 / 359) ، والإتقان للسيوطي (1 / 149 وما بعدها و425 – 426)

2 ( )التحرير والتنوير لابن عاشور (1 / 39)

وفي الجواب عن هذا التساؤل نقول : الصحيح فيما يبدو لي أنّ اللغة التي نزل بها القرآن إنما هي لغة بعض العرب وليس جميعها، والمعروف في إنزال القرآن الكريم أنّه كان بلغة قريش.

ووجَّه بعضُهم هذا القول – وهو أنّه نزل بلغة قريش – فقال : معناه : في الأغلب، وإلا ففي القرآن غيرُ لغة قريش.

وقيل : نزل بلسان قريش ولسان خُزاعة، وذلك لقرب خزاعة من قريش؛ إذ الدار واحدة، فسهلت عليهم لغتُها. وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما

وقيل(1) : نزل القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلاً منه، فإنّه نزل بلغة التميميين. (2)

روى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أن ينسخوا ما في المصاحف، وقال لهم : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربيةٍ من عربيّةِ القرآن فاكتبوها بلسان قريش، فإنّ القرآن أُنزل بلسانهم، ففعلوا. (3)

وقد أورد البخاري هذا الحديث في باب عنون له بقوله : نزل القرآن بلسان قريش والعرب، ولا يخفى ما في ذلك مما يشهد لما نحن بصدده وما أوردناه فيه.

والذي يبدو لي أنّ القرآن أُنزل بلغة قريشٍ في الأغلب، وإلا ففيه من لغات العرب الأخرى من غير لسان قريش، وعلى هذا المعنى يُحمل قول الإمام الشافعي في الرسالة : ((لا نعلمُه يُحيط ببللغة إلا نبيّ)). (4)

المبحث الخامس: هل في القرآن شيء من غير لغة العرب ؟

---

1)) هذا لقول منسوب إلى ابن ملك صاحب الألفية. ينظر الإتقان للسيوطي (1 / 425) ، والبرهان للزركشي (1 / 285).

2 ( ) ينظر : البرهان للزركشي (1 / 283 وما بعدها) ، وجامع البيان للطبري (1 / 42) ، والإتقان للسيوطي (1 / 149 وما بعدها).

3 ( ) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب ، (3 / 1799) رقم / 4699 /.

4)) ينظر : البرهان للزركشي (1 / 282 – 283).

تمهيد :

سبق أن عرفنا أنّ القرآن الكريم إنما نزل بلسان العرب ولغتهم، لكن هل في كلمات القرآن الكريم ومفرداته كلمات ومفردات من غير لغة العرب، أي : وردت بصيغ ليست عربية ؟

يُطلق العلماء على هذه المسألة اسم ((**المعرَّب**))، وعلى هذا يمكن لنا صوغ التساؤل السابق بعبارة أخرى : هل في القرآن الكريم شيء من المعرَّب ؟

وللإجابة على هذا التساؤل لا بد لنا من تحديد معنى المعرَّب أوّلاً، وإليك في يلي بيانه :

المعرَّب : بتشديد الراء وفتحها هو من الكلام ما أصله أعجميّ ثم عُرِّب، أي : استعملته العرب على نحو استعمالها لكلامها، بحيث تجري عليه قوانين كلام العرب، وتلحقه لواحق الألفاظ العربية.

ولنعد الآن إلى تساؤلنا السابق : هل في القرآن شيءٌ من غير لغة العرب ؟

للعلماء في الجواب على هذا السؤال أقوال ومذاهب، وهي محور حديثنا في المطلب الآتي :

المطلب الأول : مذاهب العلماء في وقوع ما ليس عربياً في القرآن

القول الأول : القرآن الكريم كلُّه بلسان العرب ولغتهم، وليس في مفرداته وكلماته شيء من غير لغة العرب، وعليه فالقرآن عربيٌّ نزل بلغة العرب، ولا تجوز تلاوته وقراءته بغير لغتهم.

وقد بالغ أصحاب هذا الرأي في النكير على مَن زعم أنّ في القرآن من غير لغة العرب، وعدُّوا ذلك زعماً خطيراً، وإتياناً بأمر عظيم وقول كبير.

وهذا القول هو قول جمهور العلماء وأكثر أهل العلم، وعليه أهل اللغة أيضاً.

ويُسمّى هؤلاء / المانعين، والنَّافين، والمنكرين /؛ لأنهم منعوا وقوع ما ليس عربيّاً في القرآن، ونفوه، وأنكروه.

القول الثاني : إنّ في نَظْم القرآن الكريم ما ليس عربيّاً، وأنّه وقع فيه من الكلمات والمفردات ما ليس من لغة العرب.

وهذا القول هو قول ابن عباس وسعيد بن جبير [1] وعكرمة وعطاء ومجاهد [2] وغيرهم من أهل العلم، واختاره ابن الحاجب. [3]

ويُسمّى هؤلاء / المثبتين/؛ لأنهم أثبتوا وقوع ما ليس عربيّاً في القرآن.

المطلب الثاني : عرض الأدلة

ويتضمن هذا المطلب أدلة كلِّ فريق ومستندَه فيما ذهب إليه، ولنبدأ بأدلة الجمهور.

أولاً : أدلة الجمهور ((المانعين)) : وهم القائلون بمنع أن يكون في القرآن ما ليس عربياً.

وقد استدلّ هؤلاء لما ذهبوا إليه بأدلة عدّة منها :

1) نَصُّ القرآن الكريم : فقد صرّح – وفي مواضع منه – بأنّ القرآن عربيٌّ، وهذا يدلُّ على كون عربيّةِ القرآن خالصةً مَحْضةً، والآيات التي تُثْبِت تَمحُّضَ عربيّةِ القرآن كثيرة منها :

– قوله تعالى : (إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون) / يوسف : 2 /

---

1)) هو سعيد بن جبير بن الهمام الكوفي، المكنى بأبي محمد ، الإمام الحافظ المفسِّر. قتله الحجّاج سنة سنة (95 هـ).

روى عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم منهم : ابن عباس وعائشة وغيرهم.

ينظر : شذرات الذهب لابن العماد (1 / 382 وما بعدها)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (4 / 321 وما بعدها).

2)) مجاهد : هو مجاهد بن جبر، المكنى بأبي الحجاج، تابعي من أهل مكة، وعالم مفسِّر أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما. توفي سنة (104 هـ). ينظر : سير أعلام النبلاء للذهبي (4 / 449)، والأعلام للزركلي (5 / 278).

3)) ابن الحاجب : هو عثمان بن عمر، يكنى بأبي عمرو، ويُعرف بابن الحاجب. ولد بأسنا في مصر سنة (570 هـ). كان عالماً بالأصول والجدل والعربية وغيرها، ومن مؤلفاته : الكافية في النحو، ومختصر المنتهى ..... وغير ذلك. توفي بمصر سنة (646 هـ). ينظر : سير أعلام النبلاء للذهبي (23 / 264 وما بعدها)، والأعلام للزركلي (4 / 211)، وشذرات الذهب لابن العماد (7 / 405 وما بعدها).

– وقوله تعالى : (ومِنْ قَبلِهِ كتابُ موسى إماماً ورحمةً وهذا كتابٌ مُصدِّقٌ لساناً عربياً ليُنذرَ الذين ظلموا وبُشرى للمحسنين) / الأحقاف : 12)

– وقوله سبحانه وتعالى : (قرآناً عربيَّاً غير ذي عِوَجٍ لعلّكم تَعقلون) / الزمر : 28 /

هذا وبزعم وقوع المعرَّب في القرآن ينتفي كونُه عربيَّاً مَحْضاً خالصاً، إذ كيف تَتمحَّضُ عربيتُه وفيه ألفاظ ليست من أصلٍ عربيٍّ، وإنما وردت بصيغٍ أعجمية ؟

وهل يُسمَّى الجيشُ عربيّاً خالصاً وفيه جنودٌ وفرسانٌ أعاجم ؟! ... أبداً. هكذا تماماً شأنُ اللغة في القرآن، لا تكون عربيّةً خالصةً، وفيه مفرداتٌ من أصلٍ أعجميٍّ.

2) كون القرآن عربيّاً محضاً أمرٌ لازم لسلامة التحدِّي بمعارضته :

ومن أدلة الجمهور المانعين وقوعَ المعرَّب في القرآن أنَّهم قالوا : إنّ القرآن نزل مُعجِزاً، وقد تَحدَّى العربَ أنْ يأتوا بمِثْلِه، أو بمثل بعضٍ منه، وبقي هذا التحدِّي مُعلَناً ومحفوفاً بحَثِّ العرب وبَعْثِهم على مُعارَضَة القرآن، كلُّ ذلك لإثبات عجزهم، وقد ثبت.

ولو كان في القرآن من غير لغة العرب لكان تَحدِّي العرب بمعارضته تكليفاً لهم فوق طاقتهم، وهو ممتنع؛ إذ كيف يَتأتّى لهم أنْ يُعارضوه، فينسجوا من الكلام كلاماً على منواله وقد أتاهم بغير لسانهم، وخارج نطاق لغتهم ؟! .... وإذا كان ذلك كذلك فلا يخفى ما فيه مما يُوجِبُ امتناع وقوع المعرّب في القرآن الكريم، ويحكم بردِّ القول به، وذلك يقتضي أن يكون القرآن عربيّاً خالصاً محضاً لِيَسْلَمَ أمرُ التحدِّي، فيتحقّق العجز عن المعارضة، وهذا المُقتَضى – وهو كونُ القرآن عربيّاً محضاً – هو المطلوب بعينه.

ثانياً : أدلة المُثبِتين : وهم القائلون بوقوع ما ليس عربيّاً في القرآن، وقد استدلَّ هؤلاء لما ذهبوا إليه بأدلة منها :

1) **الوقوع العمليّ والحقيقيّ للمعرّب في القرآن الكريم**، فالمُعرَّب أمرٌ واقع، والنّقلُ ثابتٌ عن كبار أئمةِ التفسير والعلم بالقرآن، بدءاً بعهد الصحابة رضي الله عنهم ومروراً بمن بعدهم على أنّ في القرآن مفردات ليست عربيّةً في الأصل، بل هي من ألسنٍ ولغاتٍ أخرى، وأنّ تلك المفردات غير مُنحصِرة في مَنحًى واحد، بل واردة في

أسماء الأعلام، وفي مناحٍ عدّة من أسماء الأجناس كاللباس والأواني والمأكولات .... وغير ذلك، وهي مفردات من الكثرة بحيث لا يتّسع مقامنا هذا لحصرها، ولسْنا معنيينَ بذلك، وإنّما نسوق على جهة التمثيل بعضاً منها :

* (أبار يق) : هي / طريق الماء / بلغة فارس.
* (الإستبرق) : هو / الديباج الغليظ / بلغة العجم.
* (أسفار) : هي / الكتب / بالسريانية.
* (جهنّم) : قيل : هي كلمة أعجمية. وقيل : فارسية. وقيل : عبرانية.
* (قسورة) : هو / الأسد / بلغة الحبشة.

هذه بعض المفردات الواردة في القرآن الكريم بصيغ ليست عربية.

هذا ومن النقول الواردة بوقوع ما ليس عربيّاً في القرآن ما رواه الطبري [1] بسند صحيح عن التابعي الجليل أبي ميسرة أنّه قال : ((في القرآن من كلِّ لسان)).

وكذلك رُوِي عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وغيرهم لدى تفسير مفردات في القرآن وبيان معانيها؛ رُوِي عنهم القول بأنها مفردات من غير لغة العرب. وفيما سقناها من الأمثلة السابقة جانبٌ يسيرٌ منها.

2) اتفاقُ النحاة على مَنعِ ألفاظٍ من الصرف لعلّة اجتماع العَلَمية والعجمة :

ومما استُدِلَّ به على وقوع المعرّب في القرآن اتفاقُ النحاة على مَنعِ ألفاظٍ من الصرف لعلّة اجتماع العَلَمية والعجمة فيها.

ومن أمثلة تلك الألفاظ : / إبراهيم ، يوسف ، إسحاق ، إسماعيل ..... وغيرها/.

هذه الألفاظ ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة، وهي ألفاظ واردة في القرآن الكريم، واتّصافها بالعجمة لا يعني سوى أنها كانت في الأصل أعجمية، ثم استعملتها

---

1)) الطبري : هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري المكنى بأبي جعفر والمعروف بالطبري نسبةً إلى طبرستان، ولد بآمُل من طبرستان سنة (224 هـ). من مصنَّفاته : كتاب التفسير والمسمَّى / جامع البيان في تأويل القرآن /، وكتاب التاريخ المسمى / تاريخ الرسل والملوك /. توفي الإمام الطبري ببغداد سنة (310 هـ). ينظر : سير أعلام النبلاء للذهبي (14 / 267 وما بعدها)، وشذرات الذهب لابن العماد (4 / 53 – 54)، والأعلام للزركلي (6 / 69).

العربُ بلغتها، وأجرتها على قوانين كلامها، فصارت معرَّبةً باستعمال العرب لها، وهو المُعرَّب بعينه.

المطلب الثالث : المناقشة والنقود والردود

تناول كلُّ فريق دليل صاحبه بالمناقشة والنقد ثمّ الرّد، وفيما يلي عَرْضٌ لطرف من ذلك :

أولاً : مناقشة أدلة المثبتين ونقدها

لم يُسلِّم مَن نفى وقوعَ ما ليس عربيّاً في القرآن؛ لم يُسلِّم بما ساقه المُثبتون من أدلة، بل تعرَّضوا لدليل خصومهم بالمناقشة والنّقد وفق الآتي :

– قالوا : ما ذكرتموه في استدلالكم على وقوع المُعرَّب في القرآن من منع صرف ألفاظٍ واردة فيه لعلّة العَلمية والعجمة؛ ما ذكرتموه لا يسلم لكم ولا يستقيم؛ لأنّ دليكم هذا خارج محلّ النزاع؛ إذ الخلاف في غير الأعلام، وهي أسماء الأجناس، أمّا الأعلام فلا نزاع فيها.

هذا **أولاً**.

ثانياً : ما ذكرتموه من مفردات وكلمات زعمتُم أنها أعجمية الأصلِ، ثم عُرِّبَت باستعمال العرب لها، وجريِهم بها على نحْوِ كلامهم؛ ما ذكرتموه من ذلك لا يسلم لكم أيضاً؛ لأنّ تلك الألفاظ ليست كما زعمتم في نسبة أصلها، وإنّما هي مما اتَّفقَت فيه اللغات؛ ذلك أنّ ألفاظاً كثيرة قد اتَّفقَت فيها أجناس جميع لغات الناس كالدرهم والدينار ... وغيرها، فكيف بنا بلفظٍ اتُّفِقَ عليه في لغتين فقط ؟!

وإذا كان اللفظ مُتّفقاً عليه في لغتين أو أكثر فليست نسبتُه إلى لغةٍ بأولى من نسبته إلى اللغة الأخرى، وليس لنا عندئذٍ أن نقول فيه : إنّه فارسيٌّ الأصل مثلاً ثم عُرِّب، أو عربيٌّ الأصل ثم استعملته فارس .... وهكذا؛ لأنّنا لسْنا نملك دليلاً يُوجِب العلم في كلتا النسبتين، وأنّى لنا ذلك الدليل ؟!

إذاً لم يبقَ لنا إذ ذاك إلا أنْ نقول في مثل تلك الألفاظ المُتَّفق عليها : إنها عربيةٌ فارسيةٌ، أو عربيةٌ حبشيةٌ ...... وهكذا بنسبة اللفظ إلى كلٍّ من اللغتين معاً على حدٍّ سواء.

وفي ضوء هذا التوجيه يُفسَّرُ ما ساقه المثبتون من نقولٍ تُثبِت أنّ في القرآن من غير لغة العرب من مثل قول التابعي الجليل أبي ميسرة : ((في القرآن من كلِّ لسان)).

والذي يبدو لي أنّ اتفاق اللغات في لفظ واحد وإنْ استقام من حيثُ إنّه مُستعمَلٌ فيهما معاً، لكنّه غير مستقيم من حيثُ نَفْيُ أن تكون نسبةُ أصله إلى إحدى اللغتين ليسَت بأولى من نسبته إلى اللغة الأخرى؛ لأنّ مثل ذلك جارٍ على خلاف الشأنِ العام في اللغات، والذي يقضي كما هو ثابت عُرفاً أن يكون لكلِّ لغةٍ ألفاظُها ومفرداتها الخاصة بها، بحيث تُمثِّل تلك اللغةُ أمَّاً شرعيةً لتلك الألفاظ، وتكون نسبةُ اللفظ إليها نسبة الفرع إلى أصله، بحيث يكون فيها مستعمَلاً أصلاً، وفي غيرها مستعمَلاً نقلاً عن لغته الأمّ إلى اللغة الأخرى.

ثانياً : منــاقـشــة أدلــة الـنّــافــين ونــقـــدهــا

كذلك لم تَسلم أدلةُ المنكرين لوقوع ما ليس عربيّاً في القرآن لدى خصومهم المثبتين لوقوعه، بل تناولها هؤلاء الآخرون بالنقاش والنقد والرد، وذلك وَفْقَ لآتي :

– قالوا : هذا التلازم الذي أقمْتُموه بين وقوع ما ليس عربيّاً في القرآن، وبين أن يكون تحدِّي العرب حاصلاً بغير لغتهم؛ هذا التلازم غير مُسلَّمٍ به، صحيحٌ أنّ تحدّي العرب بغير لغتهم لا يستقيم، وهو ممتنعٌ، لكن ما وقع في القرآن مما ليس عربيّاً في أصله لا يُخْرِجُ القرآن عن كونه عربيّاً مَحضاً؛ لأنّ هذا الدخيل قليلٌ لا يعدو أنْ يكون ألفاظاً يسيرةً قليلةً، وهي لقلّتها لا تنفي عن عربيَّةِ القرآن تَمَحُضَهَا عُرفاً، تماماً كما لا تنتفي العربية المَحْضة الخالصةُ عن القصيدة بتضمُّنها لألفاظٍ يسيرة مما ليس عربيّاً في أصله ونَشْأته، وعدم الانتفاء هذا مما جرى به العرف اتِّفاقاً، ويُمَثِّلُ في بابه شأناً عاماً لا نزاع فيه.

هذا **أولاً**.

ثانياً : ربَّما كان يَسلمُ لكم ادعاؤكم بصحة هذا التلازم أنْ لو كان ما وقع في القرآن مما ليس عربيّاً قد بقي على عجميته، ولم يُعرَّب، أمَا وقد عُرِّبَ، واستعملتْه

العرب في كلامها، وحوَّلته عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، إذاً يكون بذلك قد صار عربيّاً، وصار حكمُه حكمَ العربيّ الأصيل.

وبالتالي لا يكون تحدّي العرب عندئذٍ حاصلاً بغير لغتهم كما قلتُم، ثمّ لا يترتَّب عليه تكليفُ ما لا يُطاق أيضاً كما قلتم، ثم لا يكون ممتنعاً كذلك كما قلتم.

وبهذا تسقط اللوازم التي أنشأْتُموها على امتناع تحدِّي العرب بغير لغتهم.

ثالثاً : ما استدللْتم به من النصوص القرآنية على كون القرآن عربيّاً محضاً، من مثل قوله تعالى : (إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون) / يوسف : 2 /، وقوله سبحانه وتعالى: (قرآناً عربيَّاً غير ذي عِوَجٍ لعلّكم تَعقلون) / الزمر : 28 / ..... وغير ذلك. ما استدللْتم به من تلك النصوص لا يقتضي تَمَحُّضَ عربيةِ القرآن كما زعمْتم، بل يقتضي أنْ يكون القرآن عربيّاً في غالب ألفاظه، وبالتالي فوقوع ما ليس عربيّاً في القرآن ليس منفيَّاً بدلالة تلك النصوص ما دامت دلالتها على عربيته مراداً بها غالبُ ألفاظه، وهو عينُ المطلوب لنا.

ثمّ إنّنا إن سلمْنا لكم بدلالة تلك النصوص على تمحُّض عربية القرآن؛ فإنّا لا نُسلِّم أنّ وقوع المعرَّب فيه يخرمُ ذلك التمحُّض والخلوص؛ لأنّ المعرّب جارٍ في لغة العرب مجرى كلامهم، وواقعٌ به بيانُهم، فشأنُه شأنُ العربيّ الأصيل، وحكمُه حكمُه.

المطلب الرابع : مذهب ثالث

بعد هذا العرض لمذاهب العلماء وأدلتهم في مسألة المعرّب تجدر الإشارة هنا إلى مذهب ثالث في المسألة، جمع فيه أصحابه بين قولي المُنكِرين والمُثبِتين، وخلصوا إلـى القـول بتصديقهما معاً كلّ فيما ذهب إليه، حيث جعلوا الخلاف بين القولين لفظيّاً ليس أكثر، فقالوا :

إنّ هذه الألفاظ ليست عربيّة الأصل، بل هي في أصلها ونشأتها أعجمية، لكن وفدت إلى العرب نتيجة عوامل عدّة، فاستعملتها العرب في أشعارها وتخاطبها على نحو استعمالها لكلامها، وجرَت من كلامهم مَجْرَى العربيّ الأصيل الفصيح، فصارت بذلك عربيةً، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحدّ تماماً نزل بها القرآن.

فمَن قال : إنها عربية؛ فقد صدق، وصدقه حاصل باعتبار تعريبها واستعمالها في كلام العرب، وجريانها مجرى كلامهم.

ومن قال : إنّها أعجمية؛ فقد صدق أيضاً، وصدقه حاصل باعتبار أصلها ونشأتها.

وبهذا التوجيه يتمُّ التوفيق بين رأيي الطرفين النافين والمثبتين.

وهذا القول محكيٌّ عن أبي عبيد القاسم بن سلّام. (1)

هذا وإنّما أرجأْت الحديث عن المذهب الثالث إلى هذا المقام؛ لأنّه كما رأيت مذهب قائم على التوفيق بين المذهبين السابقين، وإنما يظهر وجه التوفيق بين الرأيين بعد الإحاطة بهما، واكتمال الصورة المعرفية بدليل كلٍّ منهما، فإذا ما أوردنا بعد ذلك مذهب التوفيق كان إيرادنا له في محلّه المناسب؛ لأنّه ورد بعد تمام البيان لمذهب المُنكرِين والمُثبِتين، وجلاء رأي كلٍّ منهما، ثم بعد استجلاء تلك الآراء واستظهارها يأتي بعد ذلك دور التوفيق والجمع بينها، وهو بالضبط ما توخيناه في عَرْضنا هذا. (2)

المطلب الخامس : خلاصات في مسألة المعرَّب

في ختام هذا التطواف في مسألة وقوع ما ليس عربيّاً في القرآن ظهرت لي أمورٌ أسوقها إليك تمثِّل خلاصة ما بدا لي فيما نحن بصدده، ويمكن إجمالها فيما يأتي :

أولاً : المعرَّب واقعٌ في اللغة اتّفاقاً.

ثانياً : لا شكَّ لديَّ في وقوع المعرَّب في القرآن الكريم، يشهد لذلك اتفاق العلماء في أسماء الأعلام، فإنّها خارجة عن دائرة النزاع، وهي من المعرَّب ، ويُمثِّل هذا القدْر

---

1)) أبو عبيد القاسم بن سلَّام : الهروي الأزدي الخزاعي، من كبار علماء الفقه والحديث والأدب، من مؤلفاته / الغريب المصنف في غريب الحديث /، كانت وفاته بمكة سنة (224 هـ). ينظر : سير أعلام النبلاء للذهبي (10/ 490)، والأعلام للزركلي (5 / 176).

2 ( ) ينظر في مسألة / المعرّب ومذاهب العلماء فيه / : البرهان للزركشي (1 / 287 وما بعدها) ، والإتقان للسيوطي (1 / 437 وما بعدها) ، وشرح مختصر الروضة للطوفي (2 / 32 وما بعدها) ، والبحر المحيط للزركشي (1 / 362 – 363 و 528 وما بعدها)، وجامع البيان للطبري (1 / 31 وما بعدها).

المُتَّفَقُ عليه أرضيّةً صلبةً لأصل المسألة، وأخذُهُ بعين الاعتبار يميل بنا إلى القناعة بوقوع ما ليس عربيّاً في القرآن، إذ كيف يُتَّفَقُ على وقوع المعرَّب في اللغة، ثم يُختلَف في وقوعه في القرآن ؟! والكلُّ متّفقٌ على أنّ القرآن نزل بلغة العرب، ورُوعيَتْ فيه قوانينُ العرب في تخاطبهم، وقواعدُهم في كلامهم، ومن قواعدهم في كلامهم استعمال ما ليس عربيّاً في أصله، والجرْيُ به مجرى كلامهم، وإخضاعه لسنن تخاطبهم وقواعد بيانهم، وإذا استقام ذلك للعرب في كلامهم؛ فما الحرجُ في استقامته في القرآن ما دام القرآن ذاتُه يرعى أصول تخاطب العرب وقواعد كلامهم ؟! ...

ثالثاً : ليس فيما وقع في القرآن مما ليس عربيّ الأصل حرفٌ واحدٌ باقٍ على عجميته الخالصة، ولم تُعرِّبه العربُ، بل كلُّ ما ورد من تلك الألفاظ معرَّبٌ ومستعمَلٌ في كلام العرب، وجارٍ في تخاطبهم مجرى كلامهم الأصيل الفصيح، وقد صيَّره هذا التعريب عربيّاً، وصيّر حكمَه حكمَ العربيّ الأصيل.

رابعاً : يبدو لي أنّ حمل الخلاف بين النافين لوقوع المعرَّب في القرآن والمثبتين له على كونه خلافاً لفظيّاً، وأنّ كلّاً من طرفيه مصيبٌ نسبيّاً فيما ذهب إليه، يبدو لي أنّ هذا الحمل اختيارٌ موفَّقٌ، لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تقدّم في هذه الخلاصة من جهة، ولكون هذا الحمل منسجِماً ومتَّفِقاً مع القدْر المتّفق عليه في هذه المسألة من جهة أخر

التوصيات والمقترحات

تناولت هذه الدراسة مسألة إنزال القرآن الكريم مُظهِرة معناه، ومُستعرِضةً أقوال العلماء، مردِفةً بأدلة كلّ قول، ثم تحليلها ومناقشتها بغيةَ إظهار الراجح منها، وبذلك لم تكن هذه الدراسة سرداً لأقوال وحكايةً لآراء ليس غير.

وإنَّ هذه الدراسة إذ تنتهج ذلك النهج في عرضها فإنّها توصي بالالتزام به، وتدعو إليه؛ حتى يتأتّى للبحث العلمي – في أيّ مجالاته كان – أن يكون وافياً بغرضه ومشبِعاً لقارئه فيما يقدمه ويعرضه. هذا **أوّلاً**.

ثانياً : اتسمت هذه الدراسة بسمتين هما :

السمة الأولى : أنّها أفردت إحدى جزئيات المسائل المتعلّقة بمباحث الكتاب العزيز بالبحث والدراسة مستقلَّةً بنفسها، وقد التزمت منهج الاختصار والإيجاز في العرض والتقديم، فجَنَتْ من وراء ذلك أنْ وضعَت إحدى المباحث المرتبطة بالقرآن الكريم في متناول القرّاء على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم، ولا شكَّ أنّ هذا النمط في العرض والتقديم يُسهم في وضع علوم الشريعة الإسلامية على تنوُّعها في مأخَذ كلِّ يدٍ تمتدُّ لنوال فائدة، أو تحصيل علم، أو جني زاد معرفيّ ما.

ولولا هذا العرض المختصر والموجز لما تأتّى لنا ذلك؛ لأنّ النفوس تملُّ – وخاصّةً في هذه الأيام – من مطالعة المطوّلات، وتضجر من قراءة الكتب الأمهات.

ومع ملاحظة ما تقدّم وأخذه بعين الاعتبار فإنّ البحث يوصي بانتهاج هذا المنهج في عرض علوم الشريعة الإسلامية، ألا وهو إفراد جزئيات علوم الشريعة ومسائلها في أبحاث مستقلة موجزة ومختصرة على نحو ما جاء في هذا البحث، ثم وضعها في متناول القرّاء وبين أيدهم، فنفتح بذلك باباً لنشر علوم الشريعة الإسلامية، وكشف ما فيها من معاني وحكم ضامنة لسعادة الإنسان وخيره، وبذلك تتحقّق لنا غاية كبرى لطالما سعى إليها كلُّ غيورٍ على دين الله عزّ وجلّ، واندفع نحوها كلُّ ساعٍ إلى التعريف به والدعوة إليه.

السمة الثانية : أنّها دراسة معافاة من عيب الاجتزاء المُشوِّه للحقيقة العلمية. صحيحٌ أنها أفردَت بالدراسة المستقلة والموجزة إحدى مباحث القرآن الكريم، لكن هذا الإفراد والاستقلال والإيجاز لم يقتضها أو يُرغمها على أدنى شكل من أشكال الاجتزاء والبتر في العرض، والذي يُشوِّه الحقيقة، فيجعل منها قزماً مُنفِّراً، ويُوقع متلقِّيها في جهل مركَّب مقيت.

وبناءً عليه فإنّ هذه الدراسة إذ توصي بالتزام منهج إفراد مباحث علوم الشريعة بالدراسة، وعرضها عرضاً موجزاً فيتأتّى وضعها في متناول القرّاء، ويتمّ لنا بذلك التعريف بدين الله تعالى ونشر علومه؛ إنّ هذه الدراسة إذ توصي بذلك فإنّها بالمقابل تحرص كلّ الحرص على ضرورة عرض الحقائق العلمية في ثوبها الناصع الأنيق عرضاً يُظهر الحقيقة العلمية جليّةً واضحةً تامّةً، يُعرَفُ أصلُها الذي ابتنت عليه،

وفرعُها الذي استند إليها، وذلك وفق تسلسل وترابط ودقة وإحكام، بعيداً كلَّ البعد عن البتر والاجتزاء والقصّ المُشوِّه.

المصادر والمراجـع

1 – الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تعليق د . مصطفى ديب البغا ، (ط 4 : 1420 هـ / 2000 م) ، دار ابن كثير – دمشق / سوريا .

2 – الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، لخير الدين الزركلي ، (ط 14 : 1999 م + ط 13 : 1998 م) ، دار العلم للملايين – بيروت.

3 – بيان المختصر ، لأبي الثناء شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني ، ت : د . علي جمعة محمد ، (ط 1 : 1424 هـ / 2004 م) ، دار السلام – مصر / القاهرة .

4 – البحر المحيط في أصول الفقه ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، ضبط و تعليق : د . محمد محمد تامر ، (ط 1 : 1421 هـ / 2000 م) ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان .

5 – البرهان في علوم القرآن ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، ت : محمد أبو الفضل ابراهيم ، (ط : لا يوجد) ، المكتبة العصرية – بيروت .

6 – التحبير شرح التحرير في أصول الفقه ، للعلامة علاء الدين علي بن سليمان المرداوي الحنبلي ، ت : د . عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين ، (ط 1 : 1421 هـ / 2000 م) ، مكتبة الرشد – الرياض / السعودية .

7 – التحرير والتنوير ، للإمام محمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون.

8 – جامع البيان في تأويل القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، (ط : 1412 هـ / 1992 م) ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان .

9 – رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب ، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، ت : الشيخ علي بن محمد معوض & الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، (ط 1 : 1419 هـ / 1999 م) ، دار عالم الكتب – بيروت / لبنان .

10 – الكتاب : السنن الكبرى المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ) حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الأولى، 1421 هـ – 2001 م

11 – سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أشرف على التحقيق : شعيب الأرناؤوط ، (ط 1: 1402 هـ / 1982 م + ط 8) ، مؤسسة الرسالة – بيروت.

12 – شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي ، ت : محمود الأرناؤوط ، ط 1 : 1411 هـ / 1991 م) ، دار ابن كثير – دمشق.

13 – شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير أو المختبر المبتكر شرح المختصر في أصول الفقه ، للعلامة محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار ، ت : د. محمد الزحيلي & د. نزيه حماد ، (ط 2 : 1418 هـ / 1997 م) ، مكتبة العبيكان– الرياض / السعودية .

14 – شرح مختصر الروضة ، لنجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم بن سعيد الطوفي ، ت : د . عبد الله بن عبد المحسن التركي ، (ط 2 : 1419 هـ / 1998 م)، مؤسسة الرسالة ناشرون – بيروت / لبنان .

15 – صحيح البخاري المسمَّى الجامع المسنَد الصحيح المختَصر من أمور رسول الله صلى لله عليه وسلم وسُننه وأيامه ، للإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي ، ت : د. مصطفى ديب البغا (ط 2 : 1413 هـ / 1993 م) ، دار العلوم الإنسانية – دمشق / حلبوني .

16 – علوم القرآن ، تأليف الأساتذة : / مصطفى البغا و محيي الدين مستو ووهبي سليمان غاوجي / ، (ط : 11410 هـ / 1989 م)، إصدارات وزارة الأوقاف في الجمهورية العربية السورية .

17 – كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي ، للإمام علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري ، ضبط و تعليق : محمد المعتصم بالله البغدادي ، (ط 2 : 1414 هـ / 1994 م) ، دار الكتاب العربي – بيروت / لبنان .

18 – المستدرك على الصحيحين ، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، وبذيله التلخيص للحافظ العراقي ، دار المعرفة.